جريدة الصّباح: 30/ 09 /1986

سوف عبيد والطّفولة الرّمز

بقلم: مصطفى الكيلاني

تتنزّل قصيدة "خيول الإفرنج" في مطلع ديوان "نوّارة الملح" (1) وقد اتّبع فيها الشّاعر نسق السّرد القصصيّ مع استخدام التّرجيع كي يذكّرنا بين الحين والآخر بطبيعة النّصّ الشّعريّة.
ينبثق السّرد من الزّمن الماضي: "عندما كان عمرها سنين عددا" وينتهي بالمستقبل: "عندما يكون عمرها سنين عددا".
وبين النّقطتين أو الحدّين تتسابق "اللّحظة الرّاهنة" فيتمثّل الشّاعر وجوده الذّاتيّ والإجتماعيّ التّاريخيّ والحضاريّ، وتتوالد الصّور لديه في مجال من التّكثيف الإيحائيّ الذّي يبهر القارئ ويحفّز فيه الخيال إلى التّنقّل بين فضاءات شاسعة في عالم أوحد هو القصيد. وفي قاع البنية الشّعريّة تكمن عناصر تركيبيّة هي بمثابة البنية المكثّفة المختفية تنغرس في صميمها طاقة شعريّة مولّدة تكتسح فضاء القصيد بأكمله وتشدّ مجمل العناصر إلى بعضها شدّا متناسقا يحقّق التّأثير في المتلقّي ويضمن جماليّة القصيد. وتبرز هذه الطّاقة المحوريّة في عشق الطّفولة، جوهر الإنسان. أمّا العناصر التّركيبيّة فإنّ جماليّتها وتأثيرها العميق يتجلّيان في التّقابل والتّضاد والتّردّد بين لغة هي أقرب إلى مألوف الإستعمال اليومي وبين لغة شعريّة إبداعيّة تصل أحيانا إلى أعلى درجات الإيحاء والتّأثير. فكيف إستخدم الشّاعر فنّيات التّضاد للتّدليل على واقع الذّات والوجود؟
إنّ للطّفولة وجوها مختلفة: هي الفعل البريء السّاذج الحافل بالمعاني الوجدانيّة. فاختار الشّاعر "طفلة" وكأنّه بذلك أراد الجمع بين الطّفولة والأنوثة علامة الإخصاب وتولد الحياة، وجعل من الأب الذّكر كائنا لغويّا مشحونا بالمدلولات العاطفيّة، يستمدّ جوهره من الطّفولة المتوثّبة حركة النّابضة حياة:

" كانت تخرج من أبيها كلّ صباح إلى الأسواق
تدفع معه العربه
وتعود
يدها في يده
مسرورة فرحه ... "

وهي لصيقة بالعاطلين في المقاهي، تظهر وتغيب كأنّها رمز الحريّة السّجينة تريد أن تحوّل الموت الكامن فيهم إلى حياة فاعلة، وهي الأنثى الحلوة الجميلة تنكشف في جسدها الأخّاذ أسرار الطّبيعة المعطاء:

" ينفتح التّفّاح على خدّيها
احسّت بصدرها ثقل الرّمان
وبزهر اللّوز في عينيها ..."

وهي الإنعتاق في حضرة الطّبيعة:
" كانت تدخل البحر إلى كعبيها
تسرّح خصلات شعرها في الرّيح "
تتفاعل مع البحر والرّيح والصّحراء بكثبانها والظّلال وجداول الماء والشّمس، و **"الهلال يميل إلى المئذنة"**.
ولم تكن الطّفولة في القصيد هذه اللّوحات المشرقة فحسب بل هي أيضا العناء والشّقاء والضّياع دفعت إليه قسرا:
"تعلّمت أن تهيم في الأسواق حافية
تلاحق السّياح"
وهي رمز الإنسان انحدر إلى الحضيض وفقد قيمه الأصيلة
"أحسّت أنّها والدّنيا حذاء".
وهي نافذة تنفتح على التّاريخ الحالك: غزوة الإسبان لتونس والإستعمار الفرنسي.
"كلّ الغزاة مرّوا من مضيق نهديها
وكان أن راحوا
لم تكن تدري أنّهم ليعودوا
وترقص لهم على الزّرابي ..."
وهي طفولة معذّبة تبرز صورتها في السّتينات من هذا القرن ممثّلة في طفلة ريفيّة "الطّريق وعرة طويلة إلى المدرسة".
إنّ الطّفولة بإختصار –هي الواقع كما يرسب في قاع الذّهن ويخرجه الشّاعر إلى فضاء العبارة.
ومن دوّامة التّناقض العنيف تنبثق رؤية مستقبليّة تتجمّع في حقل دلالي واحد: التّحرّر والتّقدّم. فتكون الطّفولة في مستقبل الكينونة الحضاريّة علامة مشرقة:
"تتعلّم المشي على الماء
تكبر قدماها على الحذاء
تتّسع خطواتها على الجسر
تعبر الجسر مع العابرين
عيونها
عيونهم
في الشّمس! ".
لم تكن لغة سوف عبيد متفاصحة دون أن يحلّ ذلك بالبيان والفصاحة. فهي لغة سهلة جميلة تلائم بساطتها وسهولة ألفاظها جوهر القصيد لأنّ جمال الطّفولة الحقيقي يكمن في البساطة وصدق الصّورة وتوقّب الحركة.
إنّ "خيول الإفرنج" العنوان علامة دالّة على طرف النّقيض، فالإفرنج يرمز بيهم في هذا السّياق إلى الحروب الصّليبيّة قديما وإلى الإستعمار -حاضرا- وهكذا تصبح الطّفولة رمزا حيّا للحريّة الإنسانيّة وللوطن. فلم تكن وطنيّة سوف عبيد وطنيّة التّنظير المجحف بل هي مجرّد شعور طبيعيّ يمتدّ إلى أعمق الجذور الإنسانيّة تدعمه ثقافة تاريخيّة إنسانيّة مكتسبة عبّر عنها

الشّاعر بلغة إبداعيّة بعيدا عن غوغاء الشّعارات والمزايـدات اللّفظيّـة. وقـد كان طفلا بحق، في طفولته الحيّة النّابضة دفق من الإبداع المتواصل فـي غمر الصّراع القائم بين الذّات الشّاعرة وبين ارهاصـات الوجـود الإجتمـاعيّ والحضاريّ. يغامر في القصيدة ويأرق من أجلها ويشقى ويأسى. يغالب فيها الحرف ولا يعرف الغلبة، ويبحث له عـن طريـق فـي خضـم اللّغـة والوجـود ينشد الوصول إلى الضّفة الأخرى ليعيد للقصيدة العربيّة مجدها القديم ويجعل منها كائنا لغويّا مستقلاّ بذاته يعكس بحق جوهر الحياة الوطنيّة والقوميّة والإنسانيّة معا.

هوامش:

(1) "نوّارة الملح" - سوف عبيد- ديميتير- 1984